العزلة في رأس الجبل

نقاش بين ناسك وصحفي

٦ — مجلة ما انقطع

من ينتفع من الحرب

في صباح اليوم الثالث بعد أن تناولنا الفطور وجلسنا مجلسنا المعتاد . قلتُ : لم أنم طائلاً لأني لم أتعوّد النوم قبل المزيع الثاني من الليل ، فأرقت نحو ساعة كانت فيها فكرة الحرب تجول في خاطري .

قال : الحرب ؟ الحرب . وقى الله المدنية منها ، أنها انتحار المدنية السكرانة بخمرة انتصارها على الطبيعة .

قلت . يقولون : الحرب احتدام تنازع البقاء . فهي إذن سنة طبيعية لا بد منها .

قال : نعم ، هي سنة طبيعية فقط . لا سنة اجتماعية أيضاً . بل تلك تقيض هذه . ولم تزل الحرب تحدث الى اليوم على الرغم من تقدم النوع البشري اجتماعيًّا . لأن غريزة التنازع لا تزال غالبة فيه . لا يزال الانسان وحشي الطبع أكثر مما هو انساني الخلق . وعلى الرغم من أن الحرب كانت قديماً حرفة الشيوخ والأمراء والملوك لأجل الكسب ، فما كانت في زمن من الأزمان مكسبة بل كانت خسائرها على الغالب أكثر من أرباحها . كان كدر لعومر الملك البابلي يغزو كل سنة أمة من الأمم . فغزا نحو ٢٥ غزوة . وكان يفرض الجزية على البلاد التي يغلبها . فكان هو شخصيًّا ينتعم بأرباح النصر . ولكن شعبه لم ينل من انتصاراته ما يساوي خسائره في الحرب . ونابوليون اجتاح أوربا في مدة بضع عشرة سنة وسيطر عليها . فهل حسنت حال الشعب الفرنساوي من جراء انتصاراته؟ ما كانت حروب نابليون الا فتكاً بالشبيبة الفرنساوية وسائر الشبيبة الأوربية .

ادرس جميع حروب التاريخ تجد أنها كانت تفضي الى نفس هذه النتيجة . خسارة

فظيعة لحاربت الحاربت حبياً في جنون بشري مطبق . تنازع الحيوانات رحمة إذا قورن سعيه الانسان ولأنه بقدر ما ارتقى الانسان ارتقت فنون تنازعه لحرقة الهلاك وتقنه

قلت : ترى ألا يفهم الناس ولاسيما ساستهم هذه الحقيقة الناصعة التي تفضلت ببيانها

قال : نعم انهم الاعظم منهم يفهمونها . ولكن الذين يثيرونها هم الآلهة — الآلهة الذين يعتقدهم ابن آدم . راجع ميثولوجيا اليونان والرومان حتى العبرانيين تجد أن الحروب كانت بين الآلهة وجنودها البشر . ولا تزال كذلك حتى اليوم .

استغربت قوله هذا وقلت : أجل كانت بعض آلهة اليونان والرومان وغيرها تحارب بعضها بعضاً . ولكني لا أرى صلة بين حربها وحروب البشر .

قال : بلى . حتى آلهة العبرانيين والمصريين والفلسطينيين والكنعانيين وغيرهم كانت تتحارب حروباً عنيفة وتقع ويلاتها على اولئك الشعوب . لا تجهل أن موسى لم يخرج بني اسرائيل من أرض مصر الا بعد أن حارب إلهه آلهة المصريين وضربهم عشر ضربات . لم تستطع آلهة المصريين ردها فكان موسى منتدب رب اسرائيل وكهنة مصر وسحرتها منتدبي آلهة مصر . فغلب اله موسى آلهة فرعون . ولما دخل الاسرائيليون ارض الميعاد كان يهوه (اله اسرائيل) رب الجنود المتقلد رتبة حنرالليسمو يحارب آلهة الفلسطينيين والكنعانيين والحثيين الخ . وكان كلما غضب يهوه على بني اسرائيل لسبب زيغانهم عنه سلط عليهم هؤلاء ، حتى إذا تابوا عاد فأسعدهم . وحكاية سقوط اريحا وايقاف الشمس يوماً وغير ذلك ترينا كيف أن يهوه كان يحارب مع اسرائيل .

ولما غلب الفلسطينيون بني اسرائيل غنموا منهم تابوت العهد وأودعوه في هيكل إلههم داجون . ولكن يهوه رب جنود اسرائيل أقوى من داجون ، فلم يسمح بأن يكون تابوت عهده بين أيدي أعدائه . ففي صباح اليوم التالي وجدوا تمثال داجون واقعاً عند أرجل تابوت العهد . فأوقفوه ثم وجدوه في اليوم الثالث واقعاً محطماً . فخافوا من قدرة إله اسرائيل الذي غلب إلههم ، فردوا تابوت العهد الى أصحابه .

فترى من هذه الأساطير العبرانية أن الآلهة منذ القديم كانوا يتحاربون بجنود رعاياهم

ولهذا كان الاسرائيليون يلقبون إلههم « رب الجنود » أي إله حرب يقودهم في جميع حروبهم

قلت : طبعاً هذه ميثولوجيا أي أساطير قديمة . أما الآن ...

فقاطعني قائلاً الآن كما كان زمان ، لا يزال الآلهة تحارب حروباً شرسة من الحروب القديمة . راجع تواريخ الحروب القديمة والحديثة تجد معظم أسبابها دينية مباشرة أو غير مباشرة ، أي انها صادرة من شهوات نفسانية ، ولكنها كانت تتوارى وراء غايات دينية ظاهراً أو باطناً .

لطالما شبت الحروب لأجل العقائد الدينية وكانت أشهرها الحروب الصليبية . وحتى العصر الأخير ما زال الهلال والصليب يتحاربان . ففي حرب البلقان كان ملك اليونان يطوف في مركبته في الشوارع وأيقونة المصلوب على صدره يستنفر بها الشعب للقتال

ولما فترت النعرة الدينية عند أمم الغرب أنشأت آلهة العصر ديناً جديداً تتفانى لأجله الأمم هو دين « الوطن » ، فكان شراً من الديانات السموية في تضحية شبيبات الشعوب على مذابح آلهتها .

ومع ذلك لا يزال الكهنة حتى الآن يرافقون الجيوش ، حتى الكهنة الذين يتلون الإنجيل القائل : « لا تقاوموا الشر بالشر بل من لطمك على خدك الأيمن حول له الأيسر » . ولا يزال رجال الدين الروحيون يصلون الى الله أن ينصر جنودهم على أعدائهم . مع أن إلههم الآن يختلف عن إلـه اسرائيل يهوه رب الجنود بأنه إله صموي لجميع الأمم على السواء . ولذلك يتضرعون الله الآن في مأزق حرج لم يضع بنو اسرائيل يهوه في مثله . لأن الله العام أصبح لا يدري أي المتحاربين يستجيب صلاته

***

وبعض المؤمنين الذين يستهجنون هذا المنطق المتناقض يذيعون دعاية السلم ضد الحرب حتى ولو كان بالتسليم للعدو عملاً بقوله « أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم » ، على أن أحدهم أخذ إذناً من الله رب الجميع أن يترك سياسة « حوّل خدك الأيسر » ويعود الى دستور يهوه رب الجنود .

فقد روى ... اكليريكيًّا ويلسيًّا كتب لسجين سُجن بسبب دعايته للسلم ضد الحرب يقول له :—

« تسألني : هل المسيح إلى حرب ؟ فأجيبك : اقرأ سفر يشوع الاصحاح الخامس عدد ١٥ [١] والاصحاح السادس [٢] فترى أن يسوع جاء الى العالم لكي يكون قائداً حربيًّا على شعب اسرائيل . وصفات يسوع لم تتغير حتى اليوم . وعقائد يسوع على الجبل انما هي دستور مملكة الجديدة . ولكن لما رأى الله أن الناس رفضوا هذا الدستور الجديد اضطرَّ أن يرجع الى دستور العهد القديم [٣] بصفة كونه يهوه رب الجنود لكي ينصر شعبه على أعدائه » . انتهى كلام الاكليريكي الويلسي .

فأي الخصمين هو شعبه الخاص الذي ينبغي أن ينصره ؟

وبقيادة يهوه يثير الحرب الآن آلهة ميثولوجيا العصر التي أشرنا إليهم سابقاً مثل اسكندر ، وهانيبال ، وقيصر ، وجنكيزخان ، وشارلمان ، ونابوليون ، وغليوم ، وموسوليني ، وهتلر . الخ . كل هؤلاء كانوا آلهة يتمدهم الجيش ويعظمهم الجمهور . وبعد دهر من الزمان يصبحون آلهة كجوبيتر ومارس وفينوس .

قلت : ولكن ما غرض هؤلاء القواد الحربيين الذين تسميهم آلهة من هذه الحروب المضنية التي تربو خسائرها على أرباحها ، وما الغرض لهم عليها ؟

قال : الغرض والهرَض شيء واحد هو اشباع شهوة السؤدد في أنفسهم . هي أقوى شهوة في الانسان . متى شبع الانسان من غذائه الجسدي جاع الى غذائه النفساني وهو هذا السؤدد الذي يشمل المجد والقوة والجبروت .

قلت : ولكن حروب اليوم لم تعد تجدي كحروب الأمس . أفلا يظن هؤلاء الآلهة الشهوانيون أن حروبهم خاسرة على كل حال ؟

---

(١) قال رئيس جند الرب ليشوع إخلع نعليك من رجلك لان المكان الذي أنت واقف به مقدس . ففعل يشوع كذلك

(٢) الاصحاح السادس : كانت أريحا مغلقة بسبب بني اسرائيل لا أحد يخرج ولا أحد يدخل . قال الرب ليشوع . أنظر قد دفعت الى يدك اريحا وملكها جبابرة البأس . تدورون دائرة المدينة جميع رجال الحرب . . الى آخر حكاية سقوط أريحا بصوتة رب الجنود

(٣) دستور موسى بيهوه وسن بسن

قال : الى الآن لم تزل شهواتهم تعمي أبصارهم فهم يخترعون عدديتهم التي تفوق عليهم من حسنات علومها آلات الحرب الجهنمية المخيفة . ان الحيوانات العجماء علمت والانسان لما يعلم بعد ـ ان المدنية الانسانية جاءت حاملة بين ذيلها أسباب فنائها. واسمع حكاية الحيتين

حرب التفاني

كانت الحدأة مطلة من عشها في الشجرة فأبصرت أفعى تحتها تتحين الفرصة للتسلق على الشجرة وغزو فراخ تلك العش . فالحدأة ربطت جأشها وقالت للأفعى : أظنك حديثة العهد في هذه الناحية يا هذه والا لما جئت الى هنا، لأن أفعى أخرى سبقتك وغزت جميع العشوش التي يمكن الوصول اليها . فليتك تعبرين النهر الى البر الآخر حيث تستقلين بتلك المنطقة البكر وحدك فهي غضة الأشجار . وأشجارها ملأى عشوشاً . أطير الى هناك وأرشدك الى حيث يكثر صيدك، فاتبعيني عبر النهر .

فشكرت لها الأفعى هذه النصيحة وقالت : أخاف أن أتعب قبل أن أصل الى الشاطىء الآخر فقالت لها الحدأة ، أرافقك فوق الماء فكلما شعرت بتعب انذريني فأمسك ذيلك بمنقاري وأجرك مسافة ترتاحين فيها .

وما بلغت الأفعى الى الشاطىء حتى كان التعب قد أنهكها ، وأما الحدأة فما لبثت أن حادت أدراجها وقصدت الى الأفعى المستوطنة في الغابة الأولى وقالت لها : — أود أن أقدم لك خدمة جليلة جزاء عفوك عن عشي .

فقالت الأفعى الاخرى : ماذا؟

قالت : اسرعي عبر النهر الى الغابة الأخرى حيث قد صرت اليه أفعى أخرى غريبة لكي تتمتع بالعشوش التي فيه . ولعلها وصلت منهوكة القوى لأنها ضعيفة وصغيرة . وأما أنت فتستطيعين أن تسبقيها وتطرديها وأنا أساعدك كلما تعبت فأمسك ذيلك بمنقاري وأجرك الى أن تبلغي الى الشاطىء .

— شكراً . على بركات الله .

وكان ما اتفقتا عليه . والتقت الأفعيان عند الشاطىء . ولما وقعت العين على العين وثبت كل منهما على الأخرى ثم التفت كل منهما على الأخرى فاغرتين شدقيهما فقالت هذه لتلك :

دعيني . هذه منطقتي

— بل هي منطقتي . وأنت دخيلة هنا . ارجعي من حيث أتيت أو آكلك قبل أن تأكلي رزقي .

وفي الحال انحلت احداها من الأخرى وطفقت كلٌّ منهما تبلع ذيل الأخرى فأصبحتا كلتاهما كدائرة . وما زالتا تبتلعان كل منهما الثانية والدائرة تضيق الى أن صارت الدائرة نقطة . ثم اختفت النقطة اذ اختفت كل منهما في بطن الأخرى . ولم يبق شيءٌ منهما .

وكان نسر فوقهما يشاهد هذه المعركة الغريبة الى نهايتها العجيبة ، فالتفت الى الحدأة اذ كانت تشاهد المعركة على شجرة أخرى وقال لها ، لقد خدعتني يا ماكرة اذ دعوتني لوليمة على أشلاء داتين الآفعيين . ولكن انتهت المعركة بفنائهما جميعاً . كيف يمكن هذا؟

فقالت الحدأة : لو لم أشاهد معارك تنتهي بمثل هذا الفناء لما حرّضت الآفعيين على القتال :

— كيف ذلك ؟

— ألا ترى معركة البشر الآن تنتهي بالفناء . فاذا كنت تنتظر أن تتغذى من أشلاء قتلى الناس فخيب أملاً . الأفضل أن نجد لنا يا صاحبي مستورداً آخر .

***

قال الناسك : هذه حقيقة عرفها الطائرات ولم يعرفها الانسان —

هكذا انتهت معركة الحيتين كما تنتهي حروب هذا الزمن بالفناء لا غالب ولا مغلوب. والسبب فيها هو غرور آلهة العصر الذين تأظروا وسيطروا على سذاجة الجماهير .

قلت : يقولون ان الحروب لازمة للتوازن بين دائرة العمران وتكاثر السكان حتى اذا ضاقت الدائرة وازدحم فيها السكان خفّفت الحروب هذا الزحام .

قال : عذراً . هذه نظرية . لله ما أسخف عقل قائلها . الرزق موفور للإنسان أكثر منه للحيوان . والعلم الحديث يستطيع أن يحوّل صخور الجبل الى بشر ما دامت هذه الصخور تحتوي على الكربون، وهواء الجو يحتوي على الاوكسجن والكربون والنيتروجن، وماء البحر يحتوي على الاوكسجن والهيدروجن، وسطح الأرض لم يزل يمج ويغذي عشرة أضعاف ناسها . وعلم الكيمياء يستطيع أن يبتدع من هذه المذكورات أحياءً يغذي بعضها بعضاً

فوجمت برهةً وأنا أفكر وهو يلقي نظرةً على مزرعته الى أن قلت : لله ، أما من وسيلة لرد هذا الانسان الأحمق الى عقله وصوابه وتفكيره ببلايا الحروب، عسى أن يتوب عنها ويعدل الى السلام بنظام عادل ؟

قال : يظهر أن الآلهة الصالحين يئسوا من اصلاح الجنس البشري الآن . فاليك خبر ماذا كان من مؤتمرهم بهذا الشأن .